أسيوط فى ثورة ١٩١٩

إعداد

دكتوره/ تهانى محمد شوقى عبد الرحمن(*)

تمهيد :

الدراسة الراهنة محاولة لاستخدام التاريخ فى تسليط الضوء على المناخين السياسى والاجتماعى خلال فترة هامة من تاريخ مصر توضيحا لحركة التحول الوطنى بوصف التاريخ يقوم بدور البارومتر للوعى الوطنى والعوامل المؤثرة فى التغير الثقافى للشعوب واعطاء فهم أعمق لحركة التحول فيها، ويتأتى ذلك فى الأساس بفحص التطورات الداخلية وربطها بالأحداث وتأثرها بشكل النظام السياسى القائم والمرتجى قيامه وحالة الرأى العام واستيعابه للأساليب التقنية من أجل الأصلح وكيف جاء التحول فى التاريخ المصرى الحديث بعد اجتيازه فترة من التغيرات الأساسية، ومن أجل هذا كله راعت تلك الدراسة عنصر الزمن والمشاكل التى صادفت الشعب المصرى ورد فعله إزاء الأحداث الهامة مع اقامة علاقة متبادلة بين الحدث والفعل الجماهيرى إزاءه حتى كان تجاوبه معه ورده عليه فى شكل ثورة شعبية واعية تعنى ما تبغيه واندفعت لتحقيقه، حتى ليخيل لمن ينظر اليها للوهلة الأولى إنها وليدة تنظيم وترتيب، وكل هذه الخصائص ستشكل الأسس التى حددت عصرية ثورة ١٩١٩ بشكل تحليلى ومن وجهة نظر القومية المصرية.

جاء شمول ثورة مارس ١٩١٩ لكافة أرجاء القطر المصرى بميزة العفوية الوطنية التى تتشابه فى الكثير من السمات مع صحوة الشعب المصرى إثر انسحاب الحملة الفرنسية العسكرية من مصر فى مطلع القرن التاسع عشر وتصديه لأصحاب السطوة القدماء متمثلين فى رموز الحكم العثمانى حتى جاء اختيارهم للجندى الألبانى محمد على لما توسموا فيه نزعة مخلصة للشعب المصرى مع الحفاظ على الرابطة بسلطة الخلافة العثمانية.

(*) مدرس التاريخ الحديث والمعاصر، كلية الآداب - جامعة أسيوط

وهكذا كانت ثورة ١٩١٩ متسمة برد الفعل الجماهيرى سواء فى جنوب الوادى أو شماله ، وساعد على ذلك وأسهم فيه توافر التجانس العرقى فى كافة ارجاء القطر، علم توجد اقليات متنافرة تضع العراقيل أمام عمل الثوار بل تضافر الجميع لخدمة الهدف السياسى المنشود، ولم تختلف الطبقة الارستقراطية عن جموع الفلاحين والحرفيين نظرا للأصول الواحدة التى تجمعهم والنابعة من الريف المصرى، وجاء اشتراك من فى السلطة التنفيذية فى الثورة ممثلين فى رجال الشرطة الموكولة لهم مهمة استتباب الهدوء والاستقرار بمدهم فئات الشعب بالسلاح والخبرة الفنية دليلا دامغا على قوة الدفع الثورى عام ١٩١٩ بعد صد محاولة المحتل البريطانى الحجر على حرية تحرك القوى السياسية الوطنية .

ومما يلفت النظر فى تلك الثورة، موقف الشعب المصرى الجاد رغم ارتفاع نسبة الأمية والفقر فيه، فقد أدرك بحسه الفطرى أهمية دوره السياسى فى الضغط على القوى الاستعمارية الحاكمة فى البلاد، بل أدرك أيضا قدرته فى التأثير على القوى الأوربية العالمية بغيا استنهاضا لرؤية جديدة لديها للمطالب المصرية العادلة فى الحرية والاستقلال .

وقد تميزت الثورة فى اسيوط بالنظر لموقعها الجغرافى بعيدا عن مركزية سلطة المحتل فى العاصمة وفى الافادة من الجبلين المحيطين بها فى تهريب الأسلحة اليها وفى اختفاء الثوار بهما، ونجحت أسيوط ايضا فى تهديد قطع الاتصال البحرى والنهرى بين قوات المحتل شمال البلاد وبين جنوبها، ومن هنا كانت خطورة هذه المنطقة بالنسبة للسلطة البريطانية، فكان ضربها بالطائرات والقنابل بكل شدة ووحشية . سيما بعد فشل السلطة فى استقطاب الأقباط رغم ارتباط مصالح أغنيائهم ومات منهم المئات مثل المسلمين وذهبوا للقاء ربهم وعلى اذرع بعضهم وشم الصليب وعلى أذرع الأخرين وشم الهلال، وأخيرا لايجب اغفال أن ثورة ١٩١٩ فى مصر كانت أول مقاومة وثورة مسلحة ضد الحلفاء المنتصرين بعد الحرب العالمية الأولى سواء فى آسيا أو فى أفريقيا باستثناء اليابان .

الفصل الأول

أثر السياسة البريطانية من بدء الحرب العالمية الأولى ١٩١٤ - ١٩١٨ فى التهيئة للثورة

أثر السياسة البريطانية من بدء الحرب فى التهيئة للثورة :

بعد قيام الاحتلال البريطانى وسيطرته الواضحة على الحكومات المصرية فترة الحرب العالمية واعلانه الحماية البريطانية وخلع السلطان عباس حلمى وقيام السلطة البريطانية بتجميع المصريين من المدن ومن الريف لاشراكهم بالقوة فى الأعمال غير العسكرية بالجيش البريطانى الى حد اتخاذ الجلد بالكرباج وسيلة لتحقيق أغراضهم فوصفوا بهذا العمل بالنخاسة جمعا للرقيق من خط الاستواء ونددت الصحف الأجنبية الديمقراطية بمأساة الشعب المصرى خاصة فى القرى ومن صور ما تقدم ارسال العمال المصريين المسخرين للعمل خارج مصر بجزيرة مودروس أثناء معركة الدردنيل بين بريطانيا وحلفائها وبين الأتراك سنة ١٩١٥ وكان الفشل فى السيطرة على منطقة المضايق بفضل استبسال الجندى التركى[٣] زودا عن أراضيه، كما تم شحن العمال أيضا الى جبهات الحرب فى فرنسا واليونان والعراق وبلغ عدد المجندين المصريين فى الخارج نحو ٢٣ ألف عامل وعملوا فى أقصى الظروف.

وأضيف الى ما تقدم فرض الضرائب على اختلافها لإمداد الجيش البريطانى بالمؤن والعتاد والاستيلاء على دواب وأموال الأهالى ومصادر قوت الشعب من الحبوب والمنتجات الزراعية من قطن وكتان لمواجهة أعباء الحرب بتصديرها للخارج وكان على القاهرة وحدها تقديم ألفين وخمسمائة طن من المواد الغذائية والاسكندرية ٢٠٠٠ طن.

وحتى الخدمات الصحية افتقدها الشعب المصرى هناك بسبب ضم الأطباء الى خدمة الجيش البريطانى فضلا عن خدمات الهلال الأحمر واسهام المصريين فى

خدمة أعمال الصليب الأحمر(٤) ودفعوا له مبلغ ٣٢٠٠ ألف جنيهجمعت بوضع مندوب فى كل مديرية من وزارة الداخلية ليرأس لجنة الاكتتاب وتم الاستيلاء على أراضى ومبانى للحكومة وللأهالى لاستخدامها فى الأغراض العسكرية وهكذا كان الحال اثناء الحرب حتى لقد علق سعد زغلول بقوله "لم يمر على مصر زمان كانت الأمور أكثر فوضى من هذا الزمان"(٥).

وزيد على ذلك فرض السلطة البريطانية الرقابة الحربية الى حد منع الاحتفالات الدينية ونشاط النقابات والحيلولة بين المصريين والتعبير عن عواطفهم مساندة للأتراك وانتشار الجواسيس لمراقبتهم وتوقيع العقوبات الجائرة على المخالفين منهم، كما فرضت الرقابة على الصحف الوطنية ومنع دخول الصحف الأجنبية التى تتناول أخبار نشوب ثورة الأيرلنديين الكاثوليك ضد حكم البريطانيين البروتستنت ومطالبتهم بالاستقلال وكذلك ثورة الهند ضد الاحتلال البريطانى(٦). وإذاء معارضة سعد زغلول للسلطة البريطانية صرح وزير الداخلية البريطانى بأنه من المطلوب القبض على سعد زغلول لموقفه فى معارضة القرارات الصادرة وجاء رد سعد "إن كانت الوطنية هى سبب سجن الناس فإنه مستحق السجن".

وكان مؤدى كل ذلك امتلاء قلوب المواطنين كرها وحقدا وغضبا على كل من يتعامل مع البريطانيين، وظهر طلبة الحقوق بأربطة عنق سوداء وتلميذات المدارس يعلقن شارات سوداء على ملابسهن، وساد كافة طبقات الشعب شعور التوتر ضد الحماية البريطانية التى ندد سعد زغلول بعدم شرعيتها لأنها جاءت من طرف واحد ولم تكن وليدة تعاقد بين دولتين مستقلتين كما يقضى نظام الحماية فى القانون الدولى (٧) وبتزايد المعارضة توقع المسئولون نشوب ثورة داخل البلاد أثناء أحداث الحرب(٨).

وبوصول ريجنالد ونجت مندوبا لبريطانيا فى مصر سنة ١٩١٦ اجتهد فى علاج مسألتين أولهما علاقة مصر بريطانيا بعد اعلان الحماية، والثانية دور مصر فى

مساعدة الانجليز أثناء الحرب ودعم مجهودهم الحربى(٩) وكان من نتائج سياسة هذا المندوب اضطرار السلطان فؤاد الى استصدار قرار وزارى بتاريخ ٩ مارس ١٩١٨ بتحمل الخزينة المصرية ثلاث ونصف مليون جنيه للإدارة العسكرية البريطانية إقرارا بفضل بريطانيا فى حماية مصر أثناء الحرب وكان ايضا من أسباب نشوب ثورة ١٩١٩ والتمهيد لها مشروع وليم برونييت (١٠) مستشار دار الحماية البريطانية فى نوفمبر ١٩١٨ متضمنا تعديلات سياسية لنظام الحكم فى مصر تخدم وضع البريطانيين باقتراح أن تكون الحكومة ملكية مقيدة برئاسة سلطان وراثى ووزراء معينين من قبله وكفالة حقوق الحماية مما ألجأ رشدى باشا رئيس الوزراء الى معارضة المشروع مهددا بالاستقالة، كما رفضته نقابة المحامين لمساسه باستقلال القضاء، ورغم سرية المشروع الا أن الشعب المصرى علم به وأدرك خطورته فكان من الأسباب التى عجلت بثورة ١٩١٩ (١١) وهكذا لم ينقطع التوصل التاريخى بين معارضة الشعب لذلك المشروع فى ظل الحماية البريطانية وبين سابقه مناهضته سنة ١٩١٢ لمشروع وزارة بطرس غالى فى مد امتياز شركة قناة السويس فى ظل الوجود البريطانى.

مؤتمر الصلح ودوره فى نشوب الثورة

وبدأ الدور الثانى لقضية المصريين مع عقد مؤتمر الصلح فى باريس إثر انتهاء المعارك العسكرية وانتصار الحلفاء على ألمانيا ودول الوسط وتركيا وكان المؤتمر معد لتكريس أوضاع المنتصرين ووضع خريطة جديدة للعالم، ولم يمثل فيه المهزمون والدول الصغيرة إلا لسماع الحكم وتنفيذ العقوبات، وتواكب عقده مع اعلان ولسن رئيس الولايات المتحدة الأمريكية للمبادئ الأربع عشر الشهيرة فيما يتعلق باحترام حرية الشعوب فى تقرير مصيرها وليس لأمة أن تكره أخرى على اتباع سياستها – لافرق بين شعب قوى وآخر ضعيف – معلنا ضرورة تعميم مبدأ مونرو الأمريكى الذى كرس استقلال الولايات المتحدة وسياستها إزاء العالم الأوربى وطالب بتطبيق مبادئه على جميع ارجاء العالم وبأن الهدف الرئيسى للحرب هو

السلم (١٢) وإن جاء التطبيق بعد ذلك مخالفا للنظرية وللمبادئ، وبالمثل كان لنشوب ثورة الروس البلشفية عام ١٩١٧ دورها فى دفع المشاعر الشعبية بكل مكان (١٣) وجاءت مظاهر التودد البريطانية للمصريين والعرب إبان الحرب حتى أن الكثير من المصريين توهموا أن بريطانيا أذعنت لمطالبهم وأخيرا كان من مظاهر المساندة الدولية للحماية البريطانية خلافا لمبدأ مونرو أن أعلن الممثل السياسى للولايات المتحدة الأمريكية بالقاهرة فى ٢٢ أبريل ١٩١٩ غداة وصول الوفد المصرى الى باريس بعد الافراج عن زعيمه سعد زغلول اعتراف الرئيس ولسن بالحماية البريطانية على مصر، بينما اعترفت المانيا بتلك الحماية بموجب معاهدة الصلح (١٤) وبذا انهارت تماما أهداف الوفد بالخذلان الأمريكى (١٥) وصرح عبد العزيز باشا فهمى عن هذه الخطوة "بأنها كانت ضربه أصابتنا فى الصميم"(١٦) هذا بينما ظهر الشعب المصرى على مسرح الأحداث فى العاصمة وسائر المديريات لما تقدم من اسباب كقوة فعالة فى تاريخ الحركة السياسية بحيث أصبح لايجدى الانجليز الحصول على تسليم دول العالم مركزهم فى مصر، بل أصبح البت فى المسألة المصرية بيد الشعب المصرى ذاته، ووضح فى ردهات مؤتمر الصلح تصادم المبادئ المثالية مع التطبيق الفعلى وعرقلت بريطانيا منذ البداية وصول رأى مصر الى المحافل الدولية وتبرأت من وعودها السابقة وبدأ المصريون يتهيأون لنبذ مجال الكلام وخوض مجال العمل ورفضوا تقديم الالتماسات وتحرير الاحتجاجات وتذكروا من تاريخهم جهود مصطفى كامل بالمجالات الدولية فى مقاومة الاحتلال ومقالاته تنديدا به وتجواله فى دول أوربا لمساندته فى كفاحه ضد الانجليز وفشل ارتكازه قانونا على الخلافة العثمانية Point d'Appuit وانهيار جهده فى اثبات جريمة بريطانيا Flagrante Delicto انتهاكا للقانون الدولى باقدامها على احتلال مصر وذهبت كلماته التى ألقاها فى مجلس النواب الفرنسى Chambre de Deputes أدراج الرياح ولاقت جهوده فى اقناع القوى الأوربية بعدالة قضية مصر انخفاضا فى الاهتمام أينما ذهب. وتذكر المصريون من قبله ثورة العرابيين التى صار الحكام بعدها يخشون الحركات الوطنية أكثر من الانتهاكات البريطانية لسلطاتهم(١٧).

وجاءت الحركة الكمالية فى تركيا منكرة صلاتها الإسلامية وخيبت رجاء الوفد المصرى الذى حمل مطالب مصر للحكومة التركية باعلان استقلال مصر فى نص واضح لتقطع على بريطانيا حجتها فيما كان لمصر حق السيادة أو الاستقلال فإذا بتركيا الكمالية تعلن تنازلها المطلق على السيادة فى العالم العربى ومصر بغير تحفظ فى التنازل يفيد الوفد المصرى فى المطالبة بحقوقه الاستقلالية أمام المؤتمر، واعتبرت بريطانيا فى تجاهل أحمق ولا نقول جهلا ببدائيات القانون الدولى إن هذا التنازل التركى نوع من الاعتراف بالواقع فى مصر متمثلا فى الاحتلال البريطانى ولاشك كان هذا التنازل التركى أول قطيعة بين تركيا والبلاد العربية وبالغاء الخلافة سنة ١٩٢٤ قطعت آخر الروابط المعنوية (١٨).

أحداث الثورة :

وجاءت ساعة الصفر عندما استدعى القائد العام للقوات البريطانية فى مصر بتاريخ ٩ مارس ١٩١٩ رجال الوفد المصرى من أعضاء الجمعية التشريعية المنتخبين بحكم ذلك من الشعب وألقى عليهم البلاغ التالى "علمت أنكم تضعون موضع المناقشة وأنكم تقيمون العقبات فى سير الحكومة المصرية تحت الحماية بالسعى فى تأليف الوزارة، وحيث أن البلاد تحت الأحكام العسكرية، لهذا يلزمنى أن أنذركم بأى عمل منكم يرمى الى عرقلة سير الادارة سيجعلكم عرضة للمسائلة الشديدة بموجب هذه الأحكام" وعندما حاول سعد زغلول مناقشته قال "لا مناقشة"(١٩).

وكانت الحكومة البريطانية قد أخطأت عندما حاولت تحديد العناصر التى تعرض القضية المصرية على مؤتم الصلح ورفضت توصية الحكومة المصرية بقيام رجال الوفد بهذا الدور وهى التوصية التى شجعت الأهالى على تأيدها وزادت السلطة البريطانية باشتراط الاعتراف بالحماية للإذن بالسفر للخارج الأمر الذى دعا سعد ورفاقه للقيام بدعاية واسعة محورها مهاجمة الحماية منعا لاستمرارها بعد الحرب (٢٠) ووجد السلطان نفسه ما بين تأييد رئيس وزرائه والوفد فيغضب

الانجليز وما بين الوقوف مع هؤلاء فيستهدف لعداء الوفد والشعب حتى استقالت وزارة رشدى باشا وتبينت صعوبة تولى وزارة تخلفها فى تلك الظروف، وخلا بالفعل مركز الوزارة نحو ثلاثة اشهر، وفى ٨ مارس ١٩١٩ أقدمت السلطة البريطانية فى مصر بموافقة وزارة الخارجية فى لندن على خطوة دلت على قصر النظر باعتقالها سعدزغلول وثلاثة من أعضاء الوفد محمد محمود- حمد الباسل- اسماعيل صدقى ونفتهم الى جزيرة مالطة، بينما حل على شعراوى وكيل الوفد محل سعد فى تصريف شئونه وسرى نبأ الاعتقال رغم حظر القيادة العسكرية البريطانية النشر على الصحف وعلم به طلبة المدارس العليا وغيرهم فى اليوم التالى فأضربوا فى صباح العاشر من مارس احتجاجا على اعتقال سعد كما أضرب عمال الترام الحرفية فى اليوم الحادى عشر وأصبحت دكاكين الوطنيين فى معظم أنحاء القاهرة مغلقة، وتجددت المظاهرات خلال المدارس والأزهر وقابلها الجنود البريطانيون باطلاق المدافع الرشاشة وكان المحامون قد أعلوا الاضراب واستثارت القسوة فى قمع المظاهرات غضب الناس وحنقهم فكثرت المظاهرات بدلا من أن تقل الى أن كان يوم الجمعة الرابع عشر من مارس عندما أطلقت العربات الانجليزية المدرعة نيرانها على حشد كبير بجوار المسجد الحسينى فقتلت بضعة عشر رجلا وجرحت كثيرين كانوا خارجين من المسجد بعد أداء الصلاة فانفجر السخط الذى طال كظمه فى الصدور وانفجرت الثورة فى كل مكان(٢١).

الأوضاع الداخلية فى اسيوط وأثرها فى إشعال الثورة :

كانت الدوافع الاقتصادية وسوء الأوضاع اسبابا ملحة فى اندلاع الثورة بمديرية أسيوط واقاليمها فكان التفاوت الطبقى واضحا بين أعيان أسيوط وفلاحيها بالإضافة الى أن ملاك الأراضى والأغنياء لم يقيموا فى أسيوط بصورة منتظمة وتركوا شئونهم لعمال لديهم تحكموا فى أرزاق الفلاحين واهدار حقوقهم فى مطالب عديدة.

وكانت نسبة الأقياط الأغنياء واضحة بالنسبة لتعدادهم الذى لم يتجاوز

النسبة العادية فى بقية الأقاليم المصرية رغم تلك المحاولات السطحية عند بعض الكتاب الغربيين لتصوير أو تصور نطاق قبطى فى الصعيد الأوسط (٢٢) أو فى أسيوط على وجه التحديد (٢٣) وكانت "الملكية الغيابية" Absentee land lordism شبه قاعدة فى أسيوط فى أغب الأحيان فلم يكن الملاك يقيمون فى اراضيهم فى الريف ليكونوا شبكة من الطغيان الصغير التى تناظر الطغيان المركزى، ويروى الدكتور جمال حمدان فى ذلك أن مصر لم تعرف طوال تاريخها طبقة اقطاعية وراثية كما عرفت أوربا الاقطاعية فى الريف والأقاليم وكذلك كان من حسن الحظ أن الطبيعة كانت كثيرا ما تتدخل لتصفى الاقطاع مؤقتا وتفرض عنصرا من المرونة الاجتماعية (٢٤) وكما نعلم كانت أصول الملكية الزراعية الكبيرة فى مصر بصفة عامة ترجع الى عوامل تاريخية مثل التمليك الفعلى للأراضى البور التى تعد ملك للحكومة وكثيرا ما أنعم الوالى على الأقارب وكبار النبلاء والعظماء بالأراضى والأباعد حتى تقرر عدم بيع اراضى الحكومة الا بأمر منه وكانت السياسة اللاحقة تستهدف رفع قيمة الأرض (٢٥) وبعد الاحتلال، وضع اللورد كرومر المندوب السامى البريطانى سياسة المحتل الاقتصادية واستهدف مصر منذ أواخر القرن التاسع عشر حتى عام ١٩٢٣ فى رسم اقتصادها بالتوجيهات الدولية وأصبحت بالتالى أكثر تعرضا لسلطات المندوب السامى فى شئونها وتكونت طبقة تجمع بين المقربين للخديوى من كبار الموظفين والأعيان والعلماء وبين صغار المزارعين والفلاحين الذين هم الأساس الحقيقى للانتاج الوطنى والذين على عاتقهم تقع مهمة سداد ديون مصر وفوائدها بالاضافة الى تحقيق أوضاع ثابته وآمنة لحقوق ملكية الأجانب فى الاقتصاد المصرى الصناعى والتجارى وأقام المحتل سياسة مقيدة كان من أهم نتائجها مساواة الأجانب بالمصريين فى الملكية وغير الملكية (٢٦) ولاشك كانت سياسة كرومر وعمادها الاستقرار والتقرب من الطبقات الدنيا أن تقدم المصريون ماليا كما ساهمت مشروعات الرى الجديدة فى رفع قيمة الأراضى الزراعية.

وإحكاما للقبضة البريطانية على اقتصاد الدولة حرصت سياسة المحتل على

انهاء بقايا النفوذ العثمانى فى البلاد والذى لايقل أهمية عن النفوذ البريطانى فكانت الواردات السنوية من تركيا لمصر تبلغ نصف واردات بريطانيا عام ١٩٠٣ وإن كانت صادرات بريطانيا لمصر أعظم شأنا وسهل ذلك الأمر أن الحكومة التركية لم تكن تميل الى المتاجرة ولذا كانت فوائد التجارة تعود على القائمين بها من الأجانب ايطاليين ويهود ويونانيين وغيرهم من حاملى الرعوية التركية (٢٧) ولا يمكن اغفال سياسة المحتل فى تطبيق اشتراكية توزيع الحكومة للأراضى المملوكة لها على الزراع بنسب متفاوته مع ادخال بعض التعديلات لحماية الفئة المنتجة(٢٨) وقد حظيت تلك السياسة بتعضيد بعض فئات الأمة باعتبارها تتمشى مع مبادئ الدين الاسلامى والأصول الاجتماعية العامة وبهذه المخططات ارتفعت ايرادات الحكومة عن مصروفها منذ ١٨٩٢ وحتى ١٩٢٠ وتقرر منذ تولى الملك أحمد فؤاد عدم فرض ضريبة أو تعديلها أو الاعفاء منها إلا بقانون كما لايجوز للحكومة أن تعقد قروضا الا بموافقة البرلمان مع عرض الميزانية الداخلية عليه كأسلوب لسياسة المحتل المزدوجة على البلاد.

وتركزت سياسة بريطانيا فى رفع القوة الشرائية المصرية ليتمكن المصريين من شراء المنتجات البريطانية.

كما كان من مصلحة بريطانيا رفع قيمة القطن المصرى حتى أصحت قيمته لا تتحدد بنفقات انتاجه فى مصر وإنما بمقدرا ما يتبادل به فى الأسواق الخارجية وأصبحت البلاد تعتمد عليه فى توجيه صادراتها وارداتها (٢٩) وانهمرت الأموال الأجنبية نتيجة لحرية الاستثمار المتداول (٣٠) وعانى سكان الأقاليم من وطأة التدخلات الأجنبية ومن زيادة دخول الأغنياء ومكاسبهم بالاضافة الى اتجاه المستعمر خلال الحرب العالمية الى الغاء نظام التعاونيات الذى ارسى قواعدها فى مصر عمر بك لطفى عام ١٩٠٧ لحماية صغار المزارعين من المرابين الأجانب وارتفاع فائدة البنوك الأجنبية بالاضافة الى ان أقل مبلغ كان يمكن اقراضه هو ١٠٠ جنيه وهو يزيد كثيرا عما يستدينه الفلاح وقد ألغى النظام التعاونى لاستزابة المتحل من نواياه واعتقدوا أنها جمعيات سياسية من شأنها أن توجد تجمعا قوميا

للفلاحين وكان مؤدى ذلك استمرار نزع ملكية صغار المزارعين لتأخرات الضرائب، وفى مديرية أسيوط خاصة فى نواحى أم القصور وبنى شقير وبنى زايد وبنى قرة وانتقل الجزء الأكبر منها الى كبار الملاك فى أسيوط وقد تم الحجز على مساحة قدرها ١٩,٦٣٥ فدانا نظير ٢٩٥٦٨٦ جنيها وتنفيذ البيع فى ٢٦٤٠ حالة ولم تقدم البنوك المركزية العقارية أية مساعدة لحل مشكلة الديون أو الحيلولة دون تدهور الملكيات الصغيرة وكان البنك العقارى من أقدم البنوك التى أنشئت فى مصر واستمر على نظام أقل قرض مائة جنيه وأيضا كان البنك الزراعى الذى خطط له كرومر ذا تأثير محدد جدا حيث كانت سنوات نشاطه هى سنوات الرخاء وعندما حدثت الأزمة المالية قبل الحرب وأثنائها لم يكن البنك عاجزا عن انقاذ الملكيات الصغيرة من المصادرة فحسب بل كان هو أداة لنزع هذه الملكيات (٣١) وتبعا لذلك زادت فرص عمل المرابين وانخفضت الملكية الزراعية من فدانين الى فدان واحد بالاضافة الى زيادة اعداد الأجراء والمعدمين (٣٢) الذين عانوا بدروهم من الفئة المستحدثة من عمال المقاولات وجمع الأنفار وأدى حرمان المزارعين الصغار من أراضيهم الى حرص كبار الملاك على ضم أراض كثيرة الى ممتلكاتهم لارتفاع أثمان المحاصيل الزراعية خاصة القطن الذى كان يشغل المساحات الكبيرة والذى أدى انخفاض أسعاره أثناء الحرب الى عجز الفلاح عن دفع ايجار الأرض التى يزرعها استئجارا لعدة سنوات بمبالغ كبيرة فى مديرية اسيوط امتثالا لارادة كبار الملاك مما رتب بيع الفلاح ماشيته ومصاغ زوجاته فضلا عن طرده من الأرض إن لم يتركها عجزا عن مواجهة تلاحق الديون أمام ضغط الحكومة لدفع الأموال الأميرية وتوقف البنوك عن التسليف .

وجاء بعد ذلك ترحيل المصريين للمشاركة فى العمليات العسكرية على فكرة التطوع التى روجتها الوثائق البيطانية توفيقا بين ما أعلنته سلطة الاحتلال البريطانية فى مصر وبين ما مارسته بالفعل اثناء الحرب من الترحيل الاجبارى (٣٣) وما صاحب ذلك من مظالم فى إعداد قوائم الصالحين للتجنيد مثل لجوء العمد والمشايخ استغلالا للصلاحيات المعطاة لهم فى تحقيق مكاسب شخصية أو الانتقام

من خصومهم بالزج بأسماء من تجاوزت أعمارهم السبعين أو لم يجاوزوا الرابعة عشر.

وساهم فى ذلك مسئولون كبار فى أسيوط مثل إبراهيم باشا حلمى الذى كان مدير جرجا فى الفترة من ١٩١٢ حتى ١٩١٧ وأحمد حمدى بك وكيل مديرية جرجا وصابر حسن برهان مأمور بندر سوهاج وأحمد الصواف مأمور مركز سوهاج الذين كانوا هدفا جماهيريا للثورة سنة ١٩١٩.

وجاء السلطان أحمد فؤاد عند توليه الحكم فى أكتوبر ١٩١٧ فأصدر مرسوما سلطانيا باعفاء من يتطوع فى خدمة الجيش البريطانى من الخدمة فى الجيش المصرى وكان هذا امتيازا جديدا للمحتل (٢٤).

وبالنسبة لفئات عمال الصناعة والتجارة قد كانت صناعة النسيج والشيلان والجلود وتطعيم الخشب فى اسيوط قد تعرضت لخطر غزو المصنوعات الأوربية للأسواق فهجزت عن مجاراتها فى الجودة والاتقان وسعرها المناسب، فأقلع المستثمر المصرى عن الاسهام فى المشروعات الصناعية التى استهدفت ايضا لاحتكار الزراع وأصحاب الأراضى لرؤوس الأموال وقلتها لدى التجار والصناع، وزادت الفجوة بين الأثرياء وبين الفلاحين والعمال الذين اضحوا يعانون من البطالة (٣٥) ويمكن القول أن فترة الحرب كانت بالنسبة للاقتصاد المصرى فترة اختبار قاسيا أظهر بوضوح نواحى الضعف فى الهيكل الاقتصادى ذلك القصور الذى حاول المستعمر بمهارة اخفائه عن الشعب المصرى وتغطية قصور الانتاج باغراق أسواق مصر بالسلع الأجنبية.

كما وضح أن الطاقة الانتاجية المصرية لايمكن أن تغطى احتياجات الشعب المصرى اثناء الحرب ولم يقتصر الخلل الاقتصادى على نواحى الانتاج بل امتد الى توزيع الثروة العقارية والمنقولة، وتأكد أن الجهاز المصرى يئن تحت سيطرة المحتل ومن ثم بدأت النظرة الجديدة للمصريين فى الاستثمار بعدم قصره على العقار وحده (٣٦).

هذا بالاضافة الى سياسة المحتل فى ان يتبع الجنيه المصرى الاسترلينى الانجليزى فشكل ذلك الحلقة الأخيرة فى سلسلة المناورات البريطانية من أجل الاحتفاظ باحتياطى الذهب المصرى فى لندن (٣٧) وتوالت النتائج المجحفة بحقوق الشعب المصرى بكل فئاته سواء فى العاصمة أو فى الأقاليم، كما أدى سحب الدور القيادى لمديرى الأقاليم وقيام المركزية الشديدة من القاهرة أن سهل تحدى الجموع الشعبية لتلك السلطات بل أدى الأمر لاشتراك رجال السلطة التنفيذية فى احداث الثورة حيث شهدت مديرية أسيوط مظاهر العنف الثورى منذ البداية.

وكممت الصحافة الوطنية وأصبح لادارة المطبوعات حق تعطيل الجرائد مؤقتا أو نهائيا دون انذار وكانت أزمة الورق وسيلة ضغط مؤثرة فى تسهيل مهمة الرقابة (٣٨) كما منع دخول الصحف الأجنبية التى ترد بأخبار الثورات ضد بريطانيا فى إيرلندا الكاثوليكية وفى الهند(٣٩).

وظهرت مؤشرات قوية أثناء الحرب بأن الشعب المصرى بكل فئاته على استعداد للتحمل فوق طاقته فى سبيل تحقيق الاستقلال.

هوامش الفصل الأول

١- لمعى المطيعى - مذاهب وشخصيات، دراسة أرنولد توينبى، دار الكاتب العربى للطباعة والنشر سنة ١٩٧٣م.

٢- أحمد عبد الرحيم مصطفى، تاريخ مصر السياسى من الاحتلال الى المعاهده، دار المعارف، ١٩٦٧، ص ٧٣.

٣- مذكرات السفير الأمريكى بالأستانة، المستر هنرى مرغنتو، تعريب فؤاد صروف، مطبعة المقطم، ١٩٢٣، ص ٧٠.

٤- لطيفة محمد سالم، مصر فى الحرب العالمية الأولى، دار المعارف، ص ٢١٧.

٥- جلال يحيى ، خالد نعيم، الوفد المصرى ١٩١٦-١٩٥٢، المكتب الجامعى الحديث، مكتبة المعارف، ص ٨٥

٦- أمين سعد زغلول، دور المثقفين فى ثورة ١٩١٩ ، رسالة دكتوراه، جامعة عين شمس، ص٨٣.

٧- مرجع سابق، ص ٨٥

٨- لطيفة محمد سالم، مرجع سابق، ص ٢٦٧.

٩- مرجع سابق، ص ٥٢

١٠- محمود كامل العروسى، الحركة الوطنية فى مصر، رسالة ماجستير، جامعة عين شمس، ص٨٣.

١١- لطيفة محمد سالم، مرجع سابق، ص٥٩.

انظر أيضا : محسن محمد ، سعد زغلول يفاوض الاستعمار، مولد ثورة ، مكتبة غريب ١٩٨٨، ص ٢٩١.

١٢- عبد الرحمن الرافعى، تاريخ مصر القومى، ١٩١٤-١٩٢١، مكتبة النهضة المصرية ص ٤٤.

١٣- لطيفة محمد سالم، مرجع سابقن ص ٢٧٠.

١٤- مجلة الكاتب ، مقال عبد العظيم رمضان، علاقات الوفد بالقوى الدولية، العدد ١٤٩، ص ٥٨.

١٥- محمد مصطفى صفوت، الجمهورية الحديثة، منشأة المعارف ص ٥٧.

انظر أيضا: محمد حسين هيكل: مذكرات فى السياسة المصرية، مكتبة النهضة المصرية، ص ١٦٥.

١٦- أمين صابر البغدادى، مرجع سابق، ص ١١٧.

١٧- جاك كراسب جونيور، كتابة التاريخ فى مصر فى القرن التاسع عشر، ترجمة الدكتور عبد الوهاب بكر، الألف كتاب الثانى، ص ٢٠٤

انظر أيضا: جاكوب لاندو، الحياة النيابية والأحزاب فى مصر (١٩٨٦-١٩٥٢)، ترجمة سامى اللينى، مكتبة مدبولى، ص ١٣٣.

١٨- أمين شاكر، سعيد العريان، محمد مصطفى عطا، تركيا والسياسة الدينية من خلفاء آل عثمان حتى خلفاء أتاتورك، دار المعارف بمصر، ص ١٠٠.

١٩- مذكرات هدى شعراوى رائدة المرأة العربية، كتاب الهلال، العدد ٣٦٩، سبتمبر ١٩٨١، ص ١٦٥.

٢٠- جلال يحيى، خالد نعيم، مرجع سابق، ص ١١٨.

٢١- مذكرات هدى شعراوى، مرجع سابق، ص ١٦٧.

٢٢- جمال حمدان، شخصية مصر ، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٥، ص ٣١، انظر:

Benjamin E. Thomas, in world geog, ed. Frcemon, Morris 1958, p. 400

٢٣- المرجع السابق ، ص ٣١.

٢٤- المرجع السابق ص ٤٨.

٢٥- محمد فهمى لهيطة، تاريخ مصر الاقتصادى ص ٤٤٩.

٢٦- محمد فهمى لهيطة، مرجع سابق، ص ٤٤٩

٢٧- المرجع السابق، ص ٤٣٩.

٢٨- المرجع السابق، ص ٤٣٤.

٢٩- المرجع السابق، ص ٥١٠.

٣٠ المرجع السابق، ص ٤٩٣.

٣١- محمد على بركات ، الفلاحون بين الثورة العرابية وثورة ١٩١٩، دراسة مجلة التاريخ والمستقبل، كلية الآداب، جامعة المنيا، مجلد ٣، عدد ٧٣، ص١٧٨.

٣٢- المرجع السابق، ص ١٧٨.

٣٣- محمد على بركات، مرجع سابق، ص ١٨٢.

٣٤- محمد عودة، فاروق بداية ونهاية، دار الهلال ١٩٩٥، ص ٥.

٣٥- محمد فهمى لهيطى، المطبعة الرحمانية بمصر يونيو ١٩٣٨، مرجع سابق، ص ٣٤٤.

٣٦- محمد رشدى، التطور الاقتصادى فى مصر، دار المعارف، ج١، سنة ١٩٧٢، ص٥٨.

٣٧- المرجع السابق، ص ٨٥.

٣٨- مها عبد الفتاح الطرابيشى، دور الصحافة المصرية فى التمهيد لثورة ١٩١٩، رسالة دكتوراه جامعة أسيوط، كلية آداب سوهاج، ١٩٧٩، ص٣٣.

٣٩- أمين سعدزغلول، دور المثقفين فى ثورة ١٩١٩، رسالة دكتوراه، جامعة عين شمس، ص ٨٣.

الفصل الثانى

كفاح شعب أسيوط

كفاح شعب أسيوط فى ثورة ١٩١٩

تشير المراجع الى أهمية موقع أسيوط الجغرافى والقورمولوجى خلال القرون العديدة من التاريخ القديم حتى التاريخ الحديث، حيث كانت هذه المنطقة تتزعم الحركة التجارية والصناعية فى جنوب الوادى، وتشهد بذلك الآثار القديمة والحديثة وقد بنيت هذه المدينة على تل مرتفع حماها من مخاطر الفيضان النيلى واتسعت على مر العصور نتيجة ازدهارها التجارى وعوامل جذبها للسكان فهى تقع على خط عرض ٢٧ شمالا وخط طول ٣١ شرقا وكانت مركزا لرسو تجارة القوافل القادمة من الصحراء الغربية من دارفور وكردفان السودانيين، كما حظيت بوضع مميز فى العصر القبطى والعصر الاسلامى واهتمت الدولة العثمانية بتقسيم منطقة الصعيد الى مديريات تسهل عمل الدولة فى الاشراف والتحكيم ورغم أن عاصمة الصعيد فى تلك الحقبة كانت مديرية جرجا إلا أن أسيوط ظلت مركزا حيويا هاما نتيجة لموقعها الجغرافى حيث استقرت فى أضيق مساحة بين الهضبتين الشرقية والغربية والتى يبلغ ارتفاعها عن سطح السهل ما يقرب من مائة متر ولم يزد عرضها عن اربع أو خمس كيلو مترات حددت من الشرق بالنيل والغرب بالهضبة الغربية هذا بالاضافة الى وجود ثلاث جزر تحميها مثل جزيرة الطوابية فى الشمال وجزيرة بنى مر تجاه الوليدية وأيضا جزيرة الواسى أو الحمراء فى الجنوب بالاضافة الى أن منطقة أسيوط كانت تنخفض كلما اتجهنا شرقا نحو النيل(١).

هذا وقد تميزت منطقة أسيوط بعدة تحصينات أقيمت فى العهد العثمانى لحماية المدينة من إغارات البدو الأعراب وأيضا فى صراع المماليك ضد الحكم العثمانى والاحتماء بأسيوط حيث أقاموا منازلهم وحصونهم غرب المدينة فوق عدة

تلال رملية مرتفعة وان لم يثبت أنهم اقاموا مع العربان فى الشط الأيمن للنيل(٢)، وليس أدل على أهمية أسيوط فى العصر العثمانى رغم أنها لم تكن عاصمة للصعيد كما أسلفنا القول أنه أطلق عليها اسم "محروسة الأسيوطية" تشبها بمحروسة مصر القاهرة (٣).

وقد درج المؤرخون القوميون فى بداية العصر الحديث تناول تاريخ مصر ككل ولم يخصصوا كتبا عن الأقاليم المصرية مثلما جرى الأمر فى البلاد العربية الأخرى فى التاريخ للخطط المختلفة مثل بغداد أو دمشق أو حلب .. الخ.

وبالتالى فإن الكتابات عن أسيوط وأهميتها لاتكفى حاجة الباحث التاريخى ولكن كما سبق القول أن ثورة ١٩١٩ التى بدأت فى العاصمة وسرعان ما انتقلت الى أسيوط فعمت المدن والقرى والنجوع بها وكان مدا ثوريا سجله التاريخ بحروف من نور اذ بمجرد وصول النبأ باعتقال سعد زغلول ورفاقه حتى بدأت حركة سلمية فى أسيوط فى ١٠ مارس ١٩١٩ وأضرب طلبة المدرسة الثانوية ومعهد أسيوط الدينى ومدرسة الأمريكان ومدرسة اخوان ويصا وبعض المدارس الأخرى، وشرعت الهيئات المختلفة فى ارسال البرقيات الى القاهرة احتجاجا على القبض على سعد زغلول ورفاقه حتى قامت السلطة الحاكمة فى أسيوط بالقبض على بعض الأشخاص بتهمة التحريض والاثارة وكان من بينهم أحمد علوان ومحمود بسيونى اخاميان، وبعض الأعيان وزجت بهم فى السجن(٤). وأصبحت الاجتماعات الوطنية تنظم فى اسيوط بصفة مستمرة لعرض تطورات الثورة فى العاصمة والوجه البحرى، ونشطت اللجان المركزية فى ارسال المنشورات الى وحداتها فى الصعيد معلنة تحكم الثوار والعسكر الرديف فى أجزاء كبيرة من العاصمة فى العباسية وقصر النيل وقامت منظمة اليد السوداء بالعاصمة وكان من رؤسائها أحد أبناء مركز ديروط البرره وهو الشيخ محمود أبو العيون بتهديد المسئولين وبعض المواطنين الذين حرصت السلطة على استقطابهم لابداء الاعتراضات على مسيرة الثورة وليصبحوا كعملاء لها لتسقط أخبار الاجتماعات والمظاهرات والمحرضين عليها سواء من المصريين أو الشوام وكتابة التقارير اللازمة

عنهم، وقد قامت المنظمة بتهديد هؤلاء بأشد العقاب على خيانة نعمة البلد التى أوتهم وخيراتها ووصلت أخبار هذه التهديدات الى القائد اللينبى طلبا لحمايته(٥) وكانت الحركة الفدائية التى بدأت سلفا قد تأكد دورها أثناء ثورة ١٩١٩ وتحركت المظاهرات سلميا فى أسيوط لمدة اربعة أيام حتى ١٤ مارس عندما بدأ القائد كوويل Kowel تطبيق ما أعلنه الجنرال واطسن Watson فى القاهرة بشأن منع المظاهرات فطلب من مدير المديرية قيام قوات البوليس بتنفيذ هذا الأمر فى أسيوط وفى الاجتماع(٦) الذى عقد بينهم من أجل اتخاذ الاجراءات المناسبة وحضره الكابتن كوبريل ومكساجتين Makmagaten مفتش الداخلية ومصطفى بك خيرى وكيل المديرية والقائم مقام عابدين بك فريد حكمدار البوليس ومأمور البندر محمد كامل الرجل الثانى فى قيادة البوليس، وفى هذا الاجتماع أوضح المأمور ضعف قوة البندر العسكرية فى التصدى للمظاهرات وتفريقها(٧) وأصر المأمور على نفس الرأى فى اجتماع ثان عقد فى مبنى المديرية بحضور المدير حيث أثيرت نفس المسألة مرة أخرى وترك الكابتن كوويل الاجتماع بانطباع أنه تم الاتفاق الذى اقر من قبل فى الذهبية وأيضا فى اجتماع عقد فى المديرية بصفة غير رسمية وبحضور موظف انجليزى كبير فى مصلحة السجون تصادف قيامه بجولة تفتيشية فى الوجه القبلى آنذاك، واثار المأمور محمد كامل مسألة عدم استعداد البندر للدفاع عن المدينة وسكت هذا الموظف وفهم الموجودون أنه موافق على هذه الرؤية وقد أجيد استخدام هذا الموقف جيدا من المأمور لتبرير موقف البوليس السلبى إزاء المظاهرات عندما انفجرت بعد ذلك وكان من المعلوم حضور المفتش الانجليزى أنه من الأفضل اتباع سياسة دبلوماسية فى مواجهة المظاهرات وليست سياسة حصار الشعب والمظاهرات وهو ما كان يرمى اليه المأمور(٨).

وفى ١٨ مارس هوجم القطار القادم من الأقصر الى القاهرة فى ديروط وديرمواس وكان به ثلاث ضباط وخمسة جنود انجليز منهم القائم مقام بوب بك مفتش السجون فى الوجه القبلى والميجر جارفى والملازم ويلى، قتلوا جميعا وهو حادث لم يسبق له مثيل منذ حادثة دنشواى(٩) وكان مستر بوب مفتش السجون

وأحد الضباط الذين قتلوا بهذا القطار قد حاول الاختباء عن المهاجمين وطلب من جندى المراسلة بالقطار أن يخفيه فغطاه بملاءة سوداء لاحدى السيدات وقال للمهاجمين أن امرأته حامل وتلتف بهذا الغطاء ولكن الثوار شكوا فى الأمر لاستحالة أن يأخذ جندى المراسلة امرأته فى الدرجة الأولى فنزعوا الملاءة ووجدوا مستر بوب فقتلوه(١٠).

وبدأت أحداث مذبحة القطار السريع تتسرب وأدرك المسئولون عمق الخطر وعندما وصل برومیت ستيوارث من وزارة الداخلية أسيوط بطائرة مائية أخبره الليفاتنت دافيز Davis إن الأحوال مازالت معتدلة ولكن يطلب امداده ببع السلحة والمؤن، وأجيب لطلبه فور رجوع برومیت الى العاصمة وكان للانجليز معسكرات فى اسيوط وديرمواس وديروط.

وفى نفس يوم حادث القطار عقد اجتماع شعبى كبير فى زاوية جامع "شرف الدين" وبعد تحديد بعض الأعمال فيه انفك الجمع بهدوء(١١) وفى اليوم ذاته وصلت أسيوط ذهبية قادمة من الأقصر تضم مجموعة من السيدات والضباط من بينهم البرجادير بيكيت W. N. Bichet واضطربت القيادة فى اسيوط لوصول هذه المجموعة الأوربية فى هذا الوقت فلم يتم انزالهم من الذهبية وذهبوا بها مباشرة الى المعسكر حيث ظلوا فيه حتى بدأ الهجوم على مدينة أسيوط فى اليوم التالى، وترك بيكت Bichet الأمور تحت رئاسة الكابتن كوويل يصرفها حسب خططه الموضوعة، وتمت خطوات ابعاد الحامية العسكرية البريطانية عن معاونة البوليس فى مهمة الحراسة بالمدينة، وبلك أمكن ابعاد المعسكر الأوربى من كارثة محققة لو تم ارسال قواته الى مكان آخر إثر الأحداث التى جرت بعد ذلك.

وبدأ هجوم الأهالى المسلح على قوات الاحتلال فى ديروط التى أعلنت الحكم الذاتى مع حفظ الأمن والاشراف على العمليات الثورية وتنظيمها مما ألجأ البريطانيين القادمين من السودان مثل السير برنارد باشا السكرتير المالى لحكومة السودان ومرافقيه الى العودة من الأقصر الى السودان واستقلوا البواخر من

بورسودان الى السويس(١٢) وكان هذا ايذانا بقطع الاتصال بين الجنوب حيث المصالح البريطانية وبين العاصمة.

وإزدادت الأحوال خطورة وهوجمت السيارات الدورية للمحتل وحدثت هجمات متتالية على خطوط المواصلات وخطوط البرق وأصبحت حياة الأوربيين فى أسيوط مهددة بخطر جسيم، أمر الكابتن كوويل الأوربيين بنقل جميع الأوربيين وعلائلاتهم الى المدرسة الأميرية الى الشمال من ترعة الابراهيمية، كما بعث برقيات الى البلاد الواقعة جنوب أسيوط لترحيل كل الأوربيين بها الى مدينة أسيوط بطريق النهر.

ونشطت حركة التظاهر ووضح قرب الانفجار الثورى وسرت شائعات قوية بأن البدو المقيمين خارج مدينة أسيوط يفدون الى داخل المدينة فأرسل مدير المديرية برسل لتهدئتهم واغرائهم ورجع المندوبون بأخبار تفيد أن البدو هادئون ولا ينوون أية إثارة وكان الانجليز يدركون تماما أهمية دور العربان فى الهجوم وفى امداد الثوار بالسلاح وتاريخهم القديم فى هذا الشأن معروف للأوربيين منذ الحملة الفرنسية على مصر سيما عربان الهوارة ومحارب وأبى كريم وغيرهم (١٣) ولم يعد خافيا أن الانجليز خدعوا تماما فى حسن نوايا الأعراب وعندما طلب المأمور الكابتن كوويل تليفونيا وأخبره بوجود احتمالات وصول أعراب من الصحراء، صعد الكابتن كوويل تليفونيا وأخبره بوجود احتمالات وصول اعراب من الصحراء، صعد الكابتن برج مبنى الارسالية الأمريكية فلم ير شيئا وأن أمر قواته بأن تستعد لأى هجوم، وفى تلك الأثناء جاء رجل أعرابى برسالة الى المستر مكناجتين تفيد أن عرب الجبهة الشرقية لن يشتركوا فى مظاهرات التخريب التى سوف تحدث فى ذلك اليوم وتشكك الضابط المسئول من رسالة البدوى وشعر بأنها خدعة ونقل ذلك تليفونيا الى مكناجيتن عندما دخل أحد الضباط يعلن بأن هناك رعاصا يطلق من قرية الوليدية وأنه رد عليهم وقتل منهم رجلين وهنا بدأ التحرك لحماية المنطقة التى بها العسكريون والأفراد الأوربيون، ولكن المتحرشين كانوا قد اختلفوا فى حدائق الوليدية الواقعة شرق المدارس وبحديقة السيدات فى الجنوب حتى تم ارجاعهم بعد تبادل النيران.

وذهب الكولونيل الى فم الترعة الابراهيمية حيث رأى زحاما فى الضفة الشرقية للنيل يمتد من قرية الواسطى حتى القنطرة استعدادا للهجوم واستطاع بعضهم بالفعل الوصول الى الضفة الغربية تجاه ترعة الابراهيمية وكان هذا ايذانا بالزحف المكثف نحو مدينة أسيوط ونصبت المدافع فى مدخل القنطرة وبدأ ضرب الثوار حتى تراجعوا (١٤)، وبعد ذلك سحب الانجليز المدافع الى داخل حديقة الرى حتى لا تتعرض لهجوم من الوليدية خاصة أن البعض من الثوار سبق أن تمكن من دخول حديقة مصلحة الرى واطلاق الرصاص على منزل مفتش الرى الانجليزى بالقرب من ملعب التنس حتى تمكنوا من الوصول الى منزل يقع بالقرب من قنطرة ترعة صغيرة الى الشمال من منزل القاضى الانجليزى واستمروا به ثلاثة ايام يطلقون الرصاص على من يقترب منهم ولم يتركوا هذا الموقع الا بعد اشعال النار فيه كما حاول المساجين فى سجن اسيوط المركزى الواقع غرب المدرسة الأميرية مبارحة السجن حتى أطلق الحراس الهنود عليهم النيران وأرجعوهم تحت رقابة شديدة .

وفى الجانب الآخر من المدينة استمرت المصادمات من جهة الغرب فأخذ المأمور محمد كامل حسبما تورد الوثائق البريطانية حصانه وكان مسئولا عن المدينة للتحرى والاستقصاء بينما كان الحكمدار متغيبا عن المدينة بحجة المحافظة على مبلغ كبير مودع بخزينة أبوتيج وحتى بعد عودته الى أسيوط لم يبرح مبنى المديرية لنفس السبب وهو المحافظة على تلك الأموال التى أحضرها من ابوتيج .

ولذا خرج المأمور وحده لاستطلاع أمر المظاهرات حيث وجد نحو ألف شخص يحملون لافتات واستمر المأمور ورجاله يراقبونهم حتى صدرت اليهم الأوامر بالذهاب الى البندر وانتهز المأمور هذه الفرصة ليدور حوار بينه وبين المتظاهرين قبل أن تصل اليه القوات البريطانية، وبينما هو يخطب فيهم صاحوا "نريد أن نقتل الانجليز وندمر ممتلكاتهم، نريد أن نحرق التبن وهو اعلان عن شعور الفلاحين بالظلم من جراء التدخل البريطانى فى المسألة الزراعية"(١٥) . وكان حريق التبن يشكل عند الفلاحين والثوار تحديا للسلطة وظلمها مثلما كان يشكل

سجن الباستيل فى فرنسا الملكية أحد مظاهر الظلم ورموزه عند الفرنسيين واجاب المأمور على هذه الصيحات "أنتم قلة وهم مجهزون أحسن تجهيز فرفعوا أسلحتهم وقالوا : لا نحن نستطيع القيام بذلك ومستعدون للموت ورائك للقيام بهذا العمل" حتى انتهى المأمور ازاء هذا الحماس الى القول بأن عليهم تجميع المزيد من الرجال والسلاح وأبدى استعداده لتزويدهم بالأسلحة الموجودة لديه وحدث التلاحم بين السلطة التنفيذية ممثلة فى أحد رجالها وبين الجموع الثائرة الذين ذهبوا الى مقر البندر لاستلام الأسلحة، وقد ذكر فى أثناء تحقيق محاكمة الثورة بعد ذلك أن المأمور محمد كامل كان يمسك بنفسه أحد اللافتات مع المتظاهين أثناء تناولهم الأسلحة من مخزن البندر (١٦)، وعندما حاول بعض جنود البندر منع الثوار من أخذ الأسلحة منعهم المأمور بحجة أنه ليس لديه أوامر بالتصدى عسكريا للمتظاهرين بل قام المأمور أثناء استيلاء الثوار على الأسلحة من البندر بالاتصال التليفونى مع مدير المديرية الذى كان مذهولا مما يسمعه يحدث داخل البندر ولم يعرف كيف يجيب المأمور عن تساؤله حول كيفية منع ذلك التعدى باعتبار أن القوة فى البندر غير كافية لمواجهة ذلك ورد تليفونيا "لا أستطيع شيئا .. فإذا كنت نفسك وتحت مسئوليتك تظن أن بامكانك استخدام القوة فعليك استخدامها" ولاشك أن تردد المدير فى اعطاء الأمر بالتصدى للتظاهر وسلب الأسلحة من البندر يعود الى ما سبق أن تم الاتفاق عليه من بند التصدى عسكريا للثوار، وهكذا تمكنت القوى الوطنية الثائرة ولا تقول الغوغاء كما وصفتهم المراسلات البريطانية والسلطات الحاكمة لأن من يخرج لمقاومة سلطة محتل مجهزة عسكريا كالسلطة البريطانية يدرك تماما مدى الخطر الذى سيتعرض له واقدامه على هذه الخطوة وبهذا التخطيط العفوى السليم يؤكد أن هناك أسبابا قوية تدعوه للتضحية وتحفزه على تنظيم أموره بحيث لايمكن وصفه بالغوغائية وظهرت روح الجدية التى شملت الجميع وارتفعت برجل الشارع الى مستوى المسئولية (١٧)، حيث جمعت قائمة شهداء الثورة والمصابين شخصيات من كافة طوائف الشعب تجمع بين الموظف والعامل والفلاح وصاحب المال والحرفى الأجير وأيضا بين الضابط والعسكرى فى البوليس المصرى.

ونجح المأمور فى تمكين المتظاهرين من السيطرة تماما على مقر البندر وثار القول بعد ذلك اثناء تحقيقات الثورة بأنه كان بالإمكان تفريق المتظاهرين ببعض الأعيرة النارية وابعادهم عن مخازن الأسلحة فى البندر وتزامن مع الهجوم على البندر هجوم على مدينة أسيوط وقامت القوة البريطانية بفتح منظم لجسر القنطرة القائم على ترعة الابراهيمية وانهمك الكابتن جريتوركس Gritoreks ومعه ثمانية رجال فى أعمالهم بينما انتشر بقية الجنود من الهنود السيخ وقد حرصت السلطات البريطانية فى مصر على الاستعانة بجنود من الهنود السيخ دون الهنود المسلمين للروابط الدينية الاسلامية، وهكذا شرع الهنود السيخ فى اطلاق النيران فى الضفة الشمالية للترعة حيث تم تبادل النيران مع المواطنين وكانت الجموع الثائرة صيدا سهلا لرصاصهم الطائش فوقع الكثير من القتلى ويذكر أن المأمور محمد كامل قد ذهب بنفسه راكبا حصانه يسأل الضابط النوبتجى عن أعداد القتلى وتقهقرت الجموع الغاضبة وسارت فى المدينة نحو مقر شونة التبن وكانت عملية جمع التبن تجرى لصالح الجيش البريطانى وتخزينه فى شونة واسعة عند محطة السكة الحديد وحتى شاطئ النيل تحت حراسة قوة على رأسها الكابتن كوويل H.G. Cowell وكانت المهمة الرئيسية لتلك القوة الإشراف على عملية جمع التبن وقد طلب من شركة الاسكندرية لكبس القطن القيام بكبس التبن المجموع وبالفعل أقامت الشركة مكبسا بالقرب من شاطئ النهر لهذا الغرض وبلغت قيمة التبن آنذاك حوالى ربع مليون جنيه، ونظرا لأن الفرقة الحارسة لم تصل اليها أوامر باستخدام القوة ضد المتظاهرين حتى يوم ٢٣ مارس فقد تمكن الثوار من مهاجمة المخازن واشعال الحريق بها وارتفعت السنة اللهب وغطت سماء المدينة، وعلى مقربة من العمارات والقصور وانتهز البعض بالطبع هذه الظروف فحدثت سرقات وكسر لأبواب المحلات بدءا بمحلات الأجانب وعلى رأسها محلات مورموز ستورز Morumis Stores أحد فروع مؤسسة المنسوجات الشهيرة والذى كان قد افتتح حديثا بأسيوط وبه اشغال مذهبه وبلورية فخمة كما أنقضوا على محلات الأقباط الكائنة بالسوق الوطنى.

وهاجم المتظاهرون السلطات البريطانية وقطعوا الاتصال بينها وبين مراكزها فى القاهرة، ورغم ذلك لم تتوقف أعمال الدولة كثيرا فى إدارتها فإنه بالرغم من الزيادة الكبيرة فى أعداد البريطانيين بالوظائف الكبرى والتى بلغت عام ١٩١٩ تسعة أعشار وكلاء الوزارات ومديرى العموم بحيث سيطروا على مراكز صنع القرار (١٨) والاشراف على التنفيذ، الا أن هيكل عام الادارة ظل مصريا فى صميمه وهكذا ترتب على الاضراب العام والانفصام بين السلطة البريطانية وأجهزة الحكم المختلفة انعزال السلطة عن أدوات التنفيذ والادارة اليومية، إلا أن هذا الانعزال لم يكن من شأنه أن يردى الى تفكك الهيمنة الحكومية لأن السلطة البريطانية لم ترتبط عضويا كما سلف بالحكومة المصرية(١٩).

وبصرف النظر عن جهود بعض الضباط المصريين فى التصدى للثوار مثل الضابط أحمد بدوى، فقد انتشرت الثورة فى أنحاء المدينة بالكامل وعندما وضح اختفاء دور الحكومة امتدت عمليات السلب والنهر وشعر الأوربيون بالقلق على مصائرهم حتى اضطر الجنرال "بيكيت" الى تولى أمر القيادة فى الساعة الحادية عشر مساءا من ذات اليوم وتم الاتفاق على التعاون بين القوات البريطانية المسلحة وقوات البوليس، وكما تذكر المراسلات البريطانية التى أخذت عنوان "الهجوم على أسيوط The Assiut Attak"(٢٠)، ولاشك أن وصول مائة من الجنود البنجابيين من الفرقة رقم ٤٦ تحت قيادة الليفتنانت دافيز Davis وماندیل Mandell حائلا دون تعرض الجالية الانجليزية والأوربيين لخطر جسيم(٢١).

ولما خلت الطرق من كل أثر للسطة قام المحامون فى أسيوط بعمليات فدائية للمحافظة على الأمن والنظام وألفوا فيما بينهم لجانا للطواف بالشوارع وطمأنة الناس كما تطوع عدد من العلماء للنصح والإرشاد والحد من جنوح تيار الثورة، ورغم ذلك تعرضوا للقبض عليهم من السلطة البيريطانية على قاعدة من يقوم بالارشاد يقوم بالتحريض.

ولم تتوقف هجمات الثوار على المعسكرات البريطانية المنتشرة فى أنحاء

أسيوط حتى دفعوا جنودها للتحصن فى مناطق دفاعية وفى صباح ٢٣ مارس هوجمت تلك الأماكن وتمكن الثوار من اختراق التحصينات وقطعوا الاتصالات بينها وبين المعسكرات الأخرى قبل أن تتمكن الامدادات من الوصول الى المركز الذى يحمى منطقة الوليدية ولم تتوقف حرب العصابات فى أنحاء أسيوط المختلفة وأصيب اللفتنانت أ.هـ هازل مفتش وزير الداخلية بجراح مميته حتى كان يوم ٢٣-٢٤ مارس بدأت السلطات البريطانية فى تصعيد العمليات العسكرية واستخدمت لأول مرة الطائرات الحربية للسيطرة على مدينة أسيوط حيث وصلت طائرتان مائيتان من القاهرة حاملتان ثلاثة مدافع وعشرة ألاف صنف من المعدات والمؤن اللازمة(٢٢)، وفورا حلقت الطائرتان فوق منطقة الوليدية لفك الحصار المفروض حول القوات البريطانية وأطلقت عليها النيران حتى أن المراقب الجوى أصيب برصاصة وفى العصر تقرر القاء القنابل على القرية بأكملها وحدثت خسائر جسيمة وسقطت احدى القنابل فى مواجهة منزل القاضى وقتلت الحارس وجرح اثنان من الجنود الهنود كما ألقى بقنبلة بالقرب من المدرسة الأميرية حيث يقيم اللاجئون الأوربيون، وسقطت القنبلة الثالثة بالقرب من المستشفى الأميرى حيث يقيم فيها المدير وبعض الأقباط(٢٣).

وكان الحصار موزعا حول تلك الأماكن وأعلنوا أن قصف المدينة سيستمر حتى تنتهى المظاهرات وانطلقت النجدات من القاهرة الى أسيوط بالبواخر النيلية حتى بلغت ١٦ فصيلة وانتشرت القوات الرادعة فى كل مكان إلا أن طبيعة أهل الصعيد فى أسيوط من حيث مقابلة التحدى بمثله وأشد ساهم فى استهانتهم بالحياة بالاضافة لطبيعة الموقع الجغرافى لأسيوط بين هضبتى الصحراء الغربية والصحراء الشرقية التى جعلتها مسرحا ملائما لمقاومة قوات الاحتلال وشاركت فى ذلك الزراعات العالية فى إيجادها أمكنة مباشرة لحرب العصابات والمقاومة (٢٤).

وعندما سكنت أصوات الرصاص فى المدينة وتوقف اطلاق القنابل والنار بدأ رجال البوليس يسيطرون على الأمن فيها وفى صبيحة اليوم التالى أى فى ٢٥ مارس رجع مدير المديرية الى منزله وفى الساعة الحادية عشرة من ذات اليوم

وصلت قوات بريطانية مكونة من عناصر ايرلندية ملكية وعناصر استرالية تحت قيادة البريجادير الجنرال هدلستون عن طريق النهر من القاهرة على الباخرة Humburg America S.S. Victoria ومراكب أخرى.

ولم تصل هذه البواخر الا بعد أن تعرضت طوال طريقها لاطلاق الرصاص عليها من الأهالى حتى نزلت مجموعة من القوة البريطانية الى الأرض لضرب الثائرين ومطاردتهم(٢٥) وتعرضت هذه القوة للضرب عند بلدة ديروط داخل الجرف الشرقى بين ديروط ومنفلوط، حيث أطلق أفراد من عائلة قرشى بالاشتراك مع أهالى البلدين النيران عليها وتذكر الوثائق البريطانية اسم زين أفندى قرشى الذى قاد هجوما حتى أصيب واضطر الى التقهقر، وبوصول هذه القوة البريطانية الى أسيوط كانت المرحلة الخطيرة قد انتهت وفى يوم ٢٨ مارس تم نقل ١٤٦ مدنيا أوربيا الى القاهرة.

وكان اللبنبى يوالى حكومته فى لندن بالتقارير ذاكرا فيها أحداث الثورة فيصف منطقة أسيوط بأنها تعج فى الأوقات العادية بالمجرمين ولذا فقد نشطوا أثناء الثورة، كما حمل ديروط المسئولية الرئيسية لمقتل القائم مقام بوب ضابط مصلحة السجون وكذلك مقتل الضابط والجنود فى قطار الأقصر الذى حدث فى ٢٧ مارس، ثم اعترف فى تقاريره بأن ديروط كانت بأكملها فى ايدى المسلحين.

وأشار الى أن اللجنة الوطنية المحلية والتى معظم أعضائها من الأقباط تصدر وبتشجيع عن مدير المديرية منشورات تنادى بالاستقلال وتدعوا الى استخدام العنف (٢٦) ولذا تم تفتيش القرى التابعة للمديرية بالقرب من أسيوط ومصادرة ما فيها من اسلحة ووضع قوات رادعة كما فرض على القرى التى يقوم بها شعب دفع مبالغ مالية تعويضا عن الخسائر (٢٧)، وهاجمت القوات البريطانية القرى والمنازل بعد أن أمرت الرجال بمغادرة مساكنهم حتى يتم البحث عن الأسلحة وواجهت الثوار بكل مظاهر التنكيل والوحشية.

محاكمات الثورة فى أسيوط

بعد محاولات اعادة الهدوء فى المدينة أصدر البريجادير جنرال هولستون قرارات معاقبة الثوار وتولى المأمور جنرال السيرجون شى قيادة القوات البريطانية فى الوجه القبلى متخذا مركزه فى أسيوط وألقى القبض على أربعمائة شخص فيها لاتهامهم بأحداث الثورة ثم كان التنكيل بالثوار والاعتداء على المحرمات وقتل مني تصدى لمنع ذلك وهى السياسة التى اتخذتها السلطات البريطانية فى اسيوط، هذا بالاضافة الى تعرض الأهالى للسرقة واضرام النيران فى منازلهم واكتظت المستشفيات بالقتلى والجرحى.

وعمد البريطانيون الى الانتقام من أهالى ديروط منذ البداية فاقتحمت خيالتهم جموع الأهالى ومعهم بعض الضباط المصريين مثل البكباشى محمد شاهين وبعض القادة الريطانيين واتخذوا من مدرسة ديروط مقرا لمحاكمة كثيرا من الفلاحين ووجهت لمعاون بوليس ديروط أبو المجد افندى الناظر تهمة افراجه عن ٢٤ موظفا سبق أن قبض عليهم اثناء الأحداث وحكم عليه بالسجن سنتين مع الشغل (٢٨) وكان هذا الضابط وهو أحد رجال السلطة التنفيذية قد قام بمساعدة الفلاحين حاملى العصى والفؤس وبعض الأسلحة الصغيرة فى الهجوم على القطار قبل أن يسارع بمغادرة المحطة.

ونذكر فى هذا المجال محمد حسين أحمد السبع ملاحظ بوليس النقطة الذى قدم للمحاكمة بتهمة معاونته الأهالى فى الاعتداء المسلح على الجنود الانجليز وحكم عليه فى اسيوط بالسجن ٤ سنوات فى ٢٠ يوليو ١٩١٩ (٢٩) وقد جرى التحقيق مع الضباط المصريين فى محكمتين عسكريتين فى آن واحد فى الصباح يحاكمون أمام محكمة البر وفى المساء فى محكمة البحر حيث استخدموا السفن الحربية الآتية من العاصمة لإجراء المحاكمات فيها وعوقب الضباط بتهمتين رئيستين: مساندة الثوار بالسلاح وباشتراك بعضهم فى تخطيط العمليات الثورية.

وقد استعان الانجليز بعدد من الشهود أرغموهم بالتهديد ليشهدوا ضد الضباط المتهمين ونفس الشئ فى قرية شلش حيث قبض الانجليز على العديد من الثوار منهم زين قرشى وأحمد قرشى وشفيق صابر والبكباشى عبد السلام فهمى، وكانت تهمتهم الاعداد للهجوم على أحد البواخر النيلية الانجليزية وحكم بالأشغال الشاقة عشر سنوات على زين قرشى وهناك قضية صنبو التى اتهم فيها محمد أحمد السبع وحكم عليه بالسجن أربع سنوات.

كما صدرت الأحكام العسكرية على كثير من مواطنى أسيوط بتهمة التحريض على قلب نظام الحكم وعلى سبيل المثال حكم على الشاويش عبد العظيم بالسجن ثمانى سنوات والصول سيد حجاج أربع سنوات والفلاح سيد حجاج أربع سنوات والفلاح سيد مشرقى الذى انضم الى احدى الجمعيات الفدائية وكان يوزع المنشورات الثورية كما اشترك فى ضرب قطار ديروط فقدم للمحكمة العسكرية وحكم عليه بالاعدام ثم خفف الى الأشغال الشاقة المؤبدة وعندما أعلن دستور ١٩٢٣ وأخلى سبيل المسجونين السياسيين لم يتذكر أحد الفلاح أسعد مشرقى فكان هو الوحيد الذى أكمل المدة القانونية لسجنه.

كما نذكر أيضا من ديروط الشقيقين محمود مفتاح ٢٥ سنة وأحمد مفتاح ١٥ سنة وكانا أيضا من ضحايا الثورة.

وكانت محكمة أسيوط من أكثر المحاكم التى اصدرت أحكام الاعدام فى قضية ديروط وديرمواس فأصدرت فى ١٧ مايو ١٩١٩ حكما بالاعدام على اثنين وتسعين متهما(٣٠) كما تم اعدام مأمور بندر أسيوط البكباش محمد كامل بعد تقديمه للمحاكمة وكانت التهمة الموجهة للمأمور أنه حرض الأهالى على مهاجمة البريطانيين وسلم الثوار بنادق البوليس واخفر يوم ٢٣ مارس ١٩١٩ أى فى الهجوم الذى وقع على الحامية البريطانية، ولم تأخذ المحكمة بدفاع المأمور فى أنه كان ينفذ أوامر رئاسته.

وأصدرت القيادة البريطانية منشورا فى الوجه القبلى يحتم على الأهالى أن

يحيوا كل ضابط بريطانى يكون مارا فى الطريق ومن يخالف هذا الأمر يقدم الى المحاكمة فكبر هذا الأمر على الأهالى وقرر رجال القضاء عدم مغادرة منازلهم حفظا لكرامتهم وأرسلوا احتجاجاتهم الى العاصمة.

وعلى اية حال فقد استمرت الثورة مشتعلة طوال مارس وابريل وحتى أغسطس وجاءت من اسيوط ومن الصعيد الى العاصمة برقيات تحتج على المحاكم العسكرية وما تصدره من أحكام اعدام وسجن، وتوقفت حركة المواصلات بين شطرى القطر المصرى واستعمل الأهالى فى أسيوط الطرق النيلية فى تحركاتهم كما كان يبحر مستشار محكمة أسيوط ورجال المحكمة بالمراكب لكى يصلوا الى العاصمة(٣١) ومنذ ٢٦ مارس حرمت على المصريين حرية التنقل أو دخول المحطات الا فى أضيق نطاق.

وتوقفت عملية نقل البريد إلا بالطائرات وعانت أسيوط من تأخر المراسلات فى كافة المجالات حتى أعلنت السلطة البريطانية وقف سريان الاجراءات القانونية لأنه لم يتسنى للمتقاضين الالتزام بالمواعيد المحددة للآجراءات اللازمة، ومن ثم أعلن بمقتضى اللنبى المندوب البريطانى بوقف سريان جميع المدد المحددة لسقوط الحق الى الآجال التى يراها قرار وزارى جديد (٣٢).

ونجحت الثورة فى اجبار بريطانيا على تغيير سياستها فى مصر بعد ان تطايرت البرقيات من باريس الى حكومة لندن تنتقد السياسة البريطانية فى مصر حتى جاءت التعليمات التالية : أولا ضرورة عودة النظام الىمصر بغير مساومة، ثانيا : تأليف حكومة وطنية ذات كفاية تذود بالسلطة اللازمة يتولاها المصريون ولو كانوا متطرفين وتعطى لهم مهمة الوكالة فى عرض القضية المصرية، وكان ذلك جزءا من سياسة شاملة جديدة نتيجة دلائل تمكن الشعب من احداث انقلاب فى السياسة البريطانية تجاه القضية المصرية واعترافا بقدرته على تحويل مشكلته الى مشكلة محلية وليست دولية تسمح للدول الأجنبية أن تتدلى بدلوها وتنتقص من السيادة المصرية ، بل لقد فرض الشعب على قياداته منظورا جديدا للثورة، كما إن

الثورة لم تستخدم الجيش كما حدث فى ثورة عرابى وذلك لوقوع البلاد تحت الاحتلال(٣٣) وإنما كانت ثورة غير مسبوقة فقد استمرت فترة بلا قيادة ولكنها تعمل على وتيرة من النظام تثير الاعجاب(٣٤).

وكانت وحدة المسلمين والأقباط فى الكفاح الوطنى من أعظم انجازات ثورة ١٩١٩ حيث ذابت كل سياسات الفرقة الطائفية أمام ما ظهر من امتزاج كامل بين المصريين قبطا ومسلمين وتكون الوفد المصرى باعتباره المؤسسة السياسية الأم الحاضنة لوحدة الشعب المصرى عنصريا وتصدت الوحدة الوطنية ضد الاعتراف بأى تحفظ دولى فى شأن الأقليات المصرية أو الوجود الطائفى فيها، وعلى انكار صفة أية قوة أجنبية فى التدخل بشأنه.

ونجد فى القمص مرقص سرجيوس صورة مشرقة للتآلف الوطنى حيث يقول من على منبر الأزهر "إذا كان الانجليز يحتلون مصر بحجة حماية القبط فأقول: ليمت القبط وليحى المسلمون أحرارا"(٣٥)، ويقول "اذا كان استقلال المصريين يحتاج الى التضحية بمليون قبطى فلا بأس من هذه التضحية"(٣٦)، ويقول أيضا "إذا كان الاستقلال موقوفا على الوحدة الوطنية وكان الأقباط فى مصر حائلا دون ذلك فإنى مستعد لأن أضع يدى فى يد اخوتى المسلمين للقضاء على الأقباط أجمعين لتبقى مصر أمة متحدة الكلمة(٣٧).

وايضا قرياقس ميخائيل مراسل صحيفة الوطن بالاسكندرية يقوم فى سنة ١٩١٩ بدعاية واسعة فى لندن لنصرة الوفد والقضية المصرية وكشف مساوئ الحكم البريطانى فى مصر، حتى ضاقت الحكومة البريطانية بنشاطه وقبضت عليه فى ديسمبر ١٩١٩ ورحلته الى مصر وقابلته السلطات فى مصر بتعهد ألا يخطب أو يشارك فى احتماع عام، وكان أيضا من بين من قدمتهم السلطات العسكرية للمحاكمة بعد ذلك، وهكذا أصبحت "الوطنية ديننا والاستقلال حياتنا" شعار الأقباط فى مصر(٣٨). ونذكر أيضا دور حبيب شنودة عمدة أسيوط وموقفه من تعيين يوسف وهبة رئيسا للوزراء فى مصر والذى كان المراد منه اصطناع الوقيعة

بين المسلمين والأقباط والاحياء المستمر للذاتية القبطية وعندما نشرت جريدة "الأجبشيان جازيت" تحت عنوان "مركز الأقباط" رسالة نسبتها الى حبيب شنودة عمدة أسيوط باسمه طالب فيها السلطات البريطانية ولجنة ملنر المبعوثة من الحكومة البريطانية لتقييم الأوضاع فى مصر بتعيين القبط فى الوظائف الادارية الكبرى وكان من المقدر أن تؤتى هذه الرسالة، مع تعيين يوسف وهبة أثار سريعة فى اشاعة الشكوك بين المسلمين والأقباط ولكن قومه الأقباط السريعة ضد يوسف وهبة أفسدت الأمر كله وأعلن حبيب شنودة بيانا فى الصحف يكذب الرسالة المزعومة ويعلن تزييفها لامضائه.

وأضحت أحداث ثورة ١٩١٩ مثالا يتطلع اليه الثوار فى أنحاء العالم حتى أن الزعيم الهندى غاندى يقول أنه تمثل بسعد زغلول فى حركته الوطنية فقال "قلدناه فى فكرة تأليف حزب من طبقات كلما اعتقل الانجليز طبقة منها حلت أخرى مكانها ولكننا فشلنا فى توحيد المسلمين والهندوس كما وحد سعد الأقباط والمسلمين وقال سعد "قامت مصر إبان ثورة ١٩١٩ ببناء أهرامات أخرى ليست كالأهرامات القديمة إنما احجارها أجسام شبان أبطال وقوامها ارواح الأسود العظام".

ومع تغير السياسة البريطانية فى مصر تغيرت طبيعة المعركة الوطنية فمن ثورة الى مباحثات ومفاوضات ومن حماية الى استقلال سواء كان ذاتيا أو خاضعا بشروط وظهرت على الساحة المصرية تكتلات سياسية تختلف تماما عما كانت عليه قبل الحرب نتيجة لثورة ١٩١٩.

أهم سمات الثورة فى أسيوط:

إذا كانت بداية الثورة قد تهيئت فى نفوس المصريين منذ وقوف سعد زغلول فى قاعة جمعية التشريع والاقتصاد ملقيا خطبته التاريخية ضد الحماية البريطانية وأصيب الانجليز بما يشبه الذهول عندما خرجت الأمة المصرية من غفلة القرون الماضية الى وعى الحاضر ورؤية المستقبل.

ومن أهم السمات البارزة فى أسيوط موقف السلطة التنفيذية ممثلة فى رجال البوليس المصرى بكل مستوياته واتجاههم الريادى فى الانضمام لجموع الشعب ضد السلطة المهيمنة والتضحية بكل مظاهر سلطتهم والتعرض للسجن والرفت من الوظيفة التى هى كل مصدر دخلهم.

كما أن لمشاركته فى التحريض والمساندة بالخبرة فى مواجهة القوى المختلفة بجانب امداد الفلاحينبالسلحة الميرى المتوفرة لديهم أثر ايجابى فى المد الثورى وفى نجاح الثوار.

وكان لطلبة مدارس الأزهر الذين ذهبوا الى قراهم فى أسيوط بعد اغلاق معاهدهم الأزهرية فى العاصمة دورا هاما فى الجهاد وفى تأليب أهالى القرى والمراكز، وكما اتسمت الثورة فى أسيوط بضآلة دور الأعيان وكبار الملاك على كثرتهم فى تلك المديرية حيث كان لغيابهم معظم السنة خارج أسيوط أثره الواضح فى شدة انفعال الجموع الشعبية ضدهم برغم أنه كان من بينهم من اضطلع بدور سياسى هام فى العاصمة مثل محمد محمود باشا أحد رفاق سعد زغلوا إلا أن ذلك لم يشفع لهم فى غضبة الجمع فى أسيوط، وتعرضت ممتلكاتهم وقصورهم للهجمات الثائره حتى أن الانجليز خشوا من تحول الثورة السياسية الى ثورة اجتماعية تقلب موازين واستراتيجية الاحتلال آن ذاك وكان رد الفعل العنيف ضد الأعيان أحد صور مواجهة الاحتلال وشكلت مديرية اسيوط موقعا هاما فى التضحية وعنف المواجهة وغزارة الدماء التى سالت.

وكما تميزت الثورة فى أسيوط بوجود وفرة هائلة فى الأسلحة بأيدى الثوار رغم التفتيش المستمر من قوات الاحتلال عن الأسلحة لدى الأهالى ومصادرتها وكان أقباط أسيوط يسلمون أسلحتهم الى المطرانية حتى لا تأخذها السلطة أثناء التفتيش ثم يأخذونها مرة أخرى.

وكان لموقع أسيوط بين جبلين يخفهما صحراء مصدرا هاما لجلب الأسلحة من العرب الموجودين بتلك المناطق عن طريق التهريب عبر الطرق الداخلية والسراديب فى الجبال وتوصيلها الى الثوار.

كما أن موقع أسيوط كان يتحكم فى طرق المواصلات بين أطراف الوادى شمالا وجنوبا وقد حرص الثوار على عدم تخريب الخطوط الحديدية الا فى أجزاء قليلة مثل أبوتيج وذلك لأهمية الخطوط فى امداد الثوار بالعتاد وكان تخريب الخطوط الحديدية بصفة عامة مظهر للاحتجاج والمشاركة فى الثورة.

بالإضافة الى أهمية موقع أسيوط أنها كانت نقطة ارتكاز للخطوط الجنوبية حيث يوجد للمحتل قوات بحرية وجوية وحربية فى أسوان وفى سواحل البحر الأحمر جنوبا حيث قامت تلك القرى بدور بارز اثناء المعارك العسكرية فى الجزيرة العربية لضرب القوى العثمانية بجانب رجال الثورة العربية هناك، وكان يهم القيادة بالقاهرة تأمين المواصلات بينهم فى اسرع وقت رغم اتجاه القوات البريطانية الى مهاجمة القرى التى تقطع خطوط المواصلات أو التى على مقربة منها إلا أن أحداث الثورة لم تتوقف وكان يكفى أن يقف شخصه ويهتف ضد المحتل حتى تتجمع حوله الألوف ويسيرون فى مظاهرات ينظمها بوليس وطنى له شارته الخاصة للحيلولة دون اندساس عناصر مخربة وسط النظام(٣٩).

وأيضا من السمات البارزة فى ثورة أسيوط غياب دور المرأة فى أحداثها بقدر واضح على عكس ما جرى فى العاصمة وبعض المديريات الأخرى وإن وجدت بعض حالات تعرضت فيها المرأة لنيران الانجليز، ويرجع تغيب دور المرأة للعادات السائدة فى الصعيد والخوف على المرأة من الاحتكاك بالسلطات المحتلة التى اتبعت أسلوبا غير حضاريا فى معاملة الثوار وفى تفتيش القرى واباحتها للجند الاسترالية والهنود السيخ.

وأخيرا من ضمن أهم السمات فى ثورة أسيوط كان ذلك الائتلاف الرائع بين المسلمين والأقباط بصورة واضحة بل ومبالغ فيها لمواجهة الاحتلال نظرا لأن الانجليز كانوا مصرين على جذب الأقباط الى جانبهم وسارعت التقارير البريطانية لقيادتها بالعاصمة فى محاولة لاثبات أن الأقباط كانوا ضحية لاعتداءات الثوار بل بلغ بهم الأمر حد اخفاء اسماء الأقباط الذين شاركوا فى اللجان الوطنية اثناء

نشوب الثورة (٤٠) ولذلك نجد ثورية الأقباط قد شابها الكثير من العنف والصرامة لمواجهة ذلك المفهوم وابطاله واثبات مصريتهم الحقة ورفضهم الكامل لاعتبارهم أقلية وطنية يجب على المحتل حمايتها .

هوامش البحث :

١- عبد المنعم شوقى، دليل مدينة أسوط ، المطابع الأميرية ١٩٦٤، ص٧.

٢- وصف مصر، تاليف علماء الحملة الفرنسية، العرب فى ريف مصر وحصرواتها،ترجمة زهير الشايب دار الشايب للنشر، ص ٩٨

وتشير هذه الدراسة الى أن العرب كانوا تقريبا سادة الشرق عن طريق الاستيلاء على أرض طرح النهر وتملكها وقد شكلوا صعوبة للحكام من حيث تأمين الجولة للمنطقة أو فرض الضرائب عليهم.

٣- عبد المنعم شوقى ، مرجع سابق، وثائق محكمة أسيوط الشرعية، وثيقة رقم ٥٢٧ غرة ربيع الآخر ١١٠٨هـ ص ٨.

انظر ايضا كتاب وصف مصر ، مرجع سابق، ص ١٩٨.

٤- شهداء ثورة ١٩١، مركز وثائق تاريخ مصر، الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٨٤، ص ١٣٧.

والجدير بالذكر أن فكرى اباظة الأديب المعروف والمحامى والصحفى الذى كان يعمل بأسيوط فترة الثورة نقل اخبار الصحفيين والمحامين وظروف القبض عليهم الى العاصمة

٥- عاصم الدسوقى، ثورة ١٩١٩ فى الأقاليم من الوثائق البريطانية، دار الكتاب الجامعى، القاهرة ١٤٠١هـ/ ١٩٨١م، ص ٩٦.

٦- المرجع السابق، ص ١٠٥

٧- المرجع السابق، ص ٨٥

٨- المرجع السابق، ص ٨٥

٩- عبد الرحمن الرافعى، مرجع سابق، ص ١٤٦.

١٠- شهداء ثورة ١٩١٩، مرجع سابق، ص ١٤٢.

١١- عاصم الدسوقى، مرجع سابق، ص ٩٧.

١٢- عبد العظيم رضمان، مرجع سابق، ص ١٣٩.

١٣- وصف مصر، العرب فى ريف مصر وصحرواتها، مرجع سابق، ص ٢١٧.

أنظر أيضا: ابراهيم طرخان، النظم الاقطاعية فى الشرق الأوسط، ص ٢٠٠

١٤- عاصم الدسوقى، مرجع سابق، ص٨٩.

١٥- المرجع السابق، ص ٩٠.

١٦- المرجع السابق، ص٩١.

١٧- حسين مؤنس ، دراسات فى ثورة ١٩١٩ ، دار المعارف، إقرأ ٤١٨، ص٨١ ويقارن حسين مؤنس بين موقف أهل الشام وترحيبهم بالتعاون مع السلطات البريطانية ضد الدولة العثمانية مما أدى الى تحطيم وحدة الشام وضياع فلسطين وبين موقف شعب مصر مسلم وقبطى الذى تمسك الوحدة فى مواجهة المحتل.

١٨- أمينص ابر البغدادى، مرجع سابق، ص ١٨٩.

١٩- من كتاب ٥٠ عاما على ثورة ١٩١٩، مركز الوثائق، وثيقة رقم ١٣٥ من الجنرال سير أ. هـ. اللنبى الى ايرل كيرزون، القاهرة فى ٣٠ مارس ١٩٢٠، ص ٢٩١.

٢٠- عاصم الدسوقى، مرجع سابق، ص ٨٣.

٢١- المرجع السابق، ص ٨٤

٢٢- حسين مؤنس، مرجع سابق، ص ٢٣٥

٢٣- عاصم الدسوقى، مرجع سابق، ص ٩٥.

٢٤- من كتاب ٥٠ عاما على ثورة ١٩١٩، مرجع سابق، ص ٢٩١.

٢٥- عاصم الدسوقى ، مرجع سابق، ص ٩٥.

٢٦- من كتاب ٥٠ عاما على ثورة ١٩١٩، مرجع سابق، ص ٣٩٤.

كما تشير المراسلات البريطانية الى مدير المديرية يرجع الى أصل ألبانى وأنه جندى يفهم معنى الخدمة ولم يعلق على ما يحدث أمامه وعللت المراسلات ذلك بأنه يبدو بأنه عقد النية على التهرب من المسئولية التى ألقيت على عاتقه.

أرجع الى عاصم الدسوقى، مرجع سابق، ص ٨٣.

٢٧- عبد الرحمن الرافعى، مرجع سابق، ص ١٧٠.

٢٨- ملف وزارة الداخلية، الأوامر العمومية، الأمر العمومى رقم ٢٥٢ فى ١٩٢٠/٧/٢٣.

٢٩- محمد صابر، مصر العليا فى ثورة ١٩١٩، رسالة ماجستير، كلية آداب المنيا جامعة المنيا. ص ١١٦.

٣٠- المرجع السابق، ص ١٤٤.

٣١- المرجع السابق، ص ١٥٣.

٣٢- أحمد عبد الرحيم مصطفى، مرجع سابق، ص ١١٢.

٣٣- فتحى رضوان، ماذا بقى من ثورة ١٩١٩ وزعيمها، دراسة ، مجلة الهلال ، أغسطس ١٩٨٤. ص١٠٦.

٣٤- طارق البشرى، المسلمون فى غطار الجماعة الوطنية، دار الشروق، ط٢، ١٤٠٨هـ/١٩٨٨. ص ١٣٠.

٣٥- المرجع السابق، ص ١٣٠

٣٦- جريدة الأهرام، ٢٧ أغسطس ١٩٧٦، مقال، مصطفى طيبة، سعد زغلول وأعظم انجازاتث ورة ١٩١٩، ص ٥

٣٧- طارق البشرى، مرجع سابق، ص ١٣٠.

٣٨- المرجع السابق، ص١٤٧.

٣٩- أحمد عبد الرحيم مصطفى، ص ١١٧.

٤٠- حسين مؤنس، مرجع سابق، ص ٧٥.

المصادر والمراجع العربية الخاصة ببحث أسيوط فى ثورة ١٩١٩

١- أحمد عبد الرحيم مصطفى، تاريخ مصر السياسى من الاحتلال الى المعاهدة ، القاهرة ١٩٦٧.

٢- أمين شاكر، وسعيد الريان، محمد مصطفى عطا: تركيا والسياسة الدينية من خلفاء آل عثمان حتى خلفاء أتاتورك، دار المعارف مصر.

٣- جاك كراسب جونيور،كتابة التاريخ فى مصر فى القرن التاسع عشر، ترجمة الدكتور عبد الوهاب بكر، الألف كتاب الثانى، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٣.

٤- جلال يحيى، خالد نعيم، الوفد المصرى ١٩١٩-١٩٥٢، المكتب الجامعى الحديث، ١٩٨٤.

٥- جمال حمدان، شخصية مصر، الهيئة المصرية العامة للكتاب، طبعة ١٩٩٥

٦- جاكوب لاندو، الحياة النيابية والأحزاب السياسية فى مصر من ١٨٦٦ حتى ١٩٥٢ ترجمة سامى الليثى، مكتبة مدبولى.

٧- حسين مؤنس، دراسات فى تاريخ ثورة ١٩١٩، اقرأ ، دار المعارف.

٨- راشد البراوى، وحمزة عليش، التطور السياسى فى مصر فى العصر الحديث، القاهرة ١٩٥٤.

٩- طارق البشرى، سعد زغلول يفاوض الاستعمار، دراسات فى المفاوضات المصرية البريطانية ١٩٢٠-١٩٢٤ ، الهيئة المصرية العامة للكتاب.

١٠- طارق البشرى، المسلمون فى إطار الجماعة الوطنية، دار الشروق ، الطبعة الثانية، ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م

١١- عاصم الدسوقى ، ثورة ١٩١٩ فى الأقاليم "من الوثائق البريطانية" دار الكتاب الجامعى، ١٤٠١هـ/ ١٩٨١.

١٢- عبد الرحمن الرافعى، تاريخ مصر القومى ١٩١٤-١٩٢١، مكتبة النهضة المصرى، ١٩٨٧.

١٣- عبد الرحمن الرافعى، ثورة ١٩١٩، ج١، القاهرة ١٩٦٨.

١٤- عبد العظيم رمضان، علاقة الوفد بالقوى الدولية، مقال مجلة الكاتب، العدد ١٤٩.

١٥- عبد المنعم شوقى: دليل مدينة أسيوط، المطابع الأميرية ١٩٦٤.

١٦- فتحى رضوان، ماذا بقى من الثورة وزعيمها، دراسة المجلة، أغسطس ١٩٨٤، مجلة الهلال.

١٧- لمعى المطيعى، مذاهب وشخصيات دراسة أرنولد توينبى، دار الكاتب العربى للطباعة والنشر، ١٩٧٣.

١٨- لطيفة محمد سالم: مصر فى الحرب العالمية الأولى: دار المعارف، ١٩٨٤.

١٩- محمد مصطفى صفوت: الجمهورية الحديثة، منشأة المعارف.

٢٠- محمد حسنين هيكل، مذكرات فى السياسة المصرية، مكتبة النهضة المصرية.

٢١- محمد على بركات، الفلاحون بين الثورة العرابية وثورة ١٩١٩، دراسة مجلة التاريخ والمستقبل. كلية الآداب، جامعة المنيا، المجلد رقم (٣) سنة ١٩٨٩، العدد (٢).

٢٢- محمد عودة، فاروق بداية ونهاية، دار الهلال سنة ١٩٩٥.

٢٣- محمد فهمى لهيطة، تاريخ مصر الاقتصادى، المطبعة الرحمانية بمصر يونيو ١٩٣٨.

٢٤- محمد رشدى، التطور الاقتصادى فى مصر، دار المعارف، ج١ سنة ١٩٧٢.

٢٥- محسن محمد، سعد زغلول ينافس الاستعمار، مولد ثورة مكتبة غريب سنة ١٩٨٨.

الوثائق العربية :

١- مركز الوثائق المصرية، من كتاب ٥٠ عاما على ثورة ١٩١٩، وثيقة رقم ١٣٥.
ملف وزارة الداخلية، الأوامر العمومية، الأمر العمومى رقم ٢٥٢ سنة ١٩٢٠.

٢- مركز وثائق تاريخ مصر شهداء ثورة ١٩١٩، الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٨٤.

٣- دار المحفوظات، سجل بيع وأطيان الأهالى بمدينة اسيوط من ١٨٨٥-١٩٨٠
نظير الأموال المطلوبة منهم للميرى رقم ٣٧٢٥ عمومى
١٦٢٠ حفظ نوعى، مخزن ١ تركى

أبحاث علمية غير منشورة:

١٠- أمين سعد زغلوا، دور المثقفين فى ثورة ١٩١٩، رسالة دكتوراه جامعة عين شمس.

٢- مها عبد الفتاح الطرابيشى، دور الصحافة المصرية فى التمهيد لثورة ١٩٥٢، رسالة دكتوراه ، جامعة أسيوط، آداب سوهاج.

٣- محمد صابر، مصر العليا فى ثورة ١٩١٩، رسالة ماجستير، جامعة المنيا، كلية الآداب.

٤- محمود كامل العروسى، الحركة الوطنية فى مصر، رسالة ماجستير، جامعة عين شمس.

مذكرات شخصية:

١- مذكرات السفير الأمريكى بالأستانة، المتر هنرى مرغنتو، تعريب فؤاد صروف، مطبعة المقطم.

٢- مذكرات هدى شعراوى، رائدة المرأة العربية، كتاب الهلال العدد ٣٦٩.

دوريات ومجلات:

١- جريدة الأهرام بتاريخ ٢٧ أغسطس ١٩٧٦.

٢- مجلة الكاتب العدد ١٤٩.

٣- مجلة التاريخ والمستقبل، كلية الآداب جامعة المنيا، مجلد رقم ٣ سنة ١٩٨٩، العدد ٢.